مرثية بلنسيَة ضائعة !

وجاء الدور على بلنسية !

أكبر مدن شرق الأندلس ، على البحر الأبيض المتوسط ، وأعظم موانئ الأندلس الإسلامى، وكانت كما يصفها **الحجارى** المؤرخ فى كتابه «**المسهب**» : « مطيب الأندلس ، ومطمح الأعين والأنفس ، خصها الله بأحسن مكان، وحفها بالأنهار والجنان ، فلا ترى إلا مياها تتفرع ، ولا تسمع إلا أطياراً تسجع ، ولا تستنشق إلا أزهاراً تنفح ، وماأجلت لحظك فى شىء إلا قلت هذا أملح » وتميزت بوديانها المثمرة ، وخيرها الوفير ، ونظمها الدقيقة فى الزرع والإرواء كانت مهبط كثير من الأسر العربية العريقة ، ومنتدى لجمع من الكتاب والأدباء. والشعراء، **كابن الأبار وابن خفاجة وابن الزقاق**. وسقطت رسميا فى يد **السيد** فى ١٥ يونية ١٠٩٤ م ، وكانت قبل ذلك تحت سيطرته الفعلية . أو تحت حماية **ألفونسو ملك قشتالة** ، منذ دخلتَ فى حوزة **بنى ذى النون** أصحاب طليطلة عام ١٠٦٥ م . أى أن التاريخ بين سقوط طليطلة فى يد ألفونسو. وبلنسية فى يد السيد لا يتجاوز تسعة أعوام .

وكانت النتائج التى أدى إليها سقوط المدينتين واحدة فى مجال السياسة ، فبعد سقوط **طليطلة** عبر **يوسف بن تاشفين** أمير المرابطين فى المغرب **مضيق جبل طارق** ، ولأول مرة ، لكى يثأر لذل المسلمين ، ويلغ بانتصاره فى **معركة الزلاقة** على الجيوش المسيحية جاهاً ومجداً خالدين .وبعد سقوط **بلنسية** أحس بنفس المرارة التى أحس بها عند سقوط طليطلة ، وربما على نحو أعنف وأشد ، فحشد جيشاً من المغرب ، وكتب إلى قواده فى مدن الأندلس ، أن يمدوه بما يستطيعون من المئونة والجنود ، وجاء الجيش وعلى رأسه أكبر قواده ، ابنَ أخيه

سير بن أبي بكر بن تاشفين ، وحاصر بلنسية ، ودام الحصار طويلا ، ونازل السيد فى عدد من المعارك، خسر بعضا منها وربح بعضا ، وأخيراً استطاع المرابطون أن يحرروا المدينة فى أوائل مايو ١١٠٢م ، أى بعد ثمانية أعوام من احتلال السيد .

ولقد عانى أهل بلنسية من أهوال الاحتلال مالم يعانه أحد قبلهم ، ذلا وجوعاً واسترقاقاً ، ومع ذلك فإن سقوط بلنسية لم يكن له من الصدى بين الشعراء ما كان لسقوط طليطلة . وليس بين أيدينا من شعر فى المصادر العربية، يتحدث عنها، ويعرض لما أصابها غير أبيات قليلة، أربعة أبيات لابن خفاجة (١٠٥٨ — ١١٣٩ م) ، هى بالوصف ألصق منها بالرثاء ، ويبدو صاحبها مسرفاً فى الحياد والموضوعية ، لا تنضح بعاطفة ، ولا تنم عن تأثر ، ولا توحى بالمناسبة التى قيلت فيها ، وهى كما تصدق على بلنسية اجتاحها العدو ، وعبث بجلال أهلها المسيحيون، يمكن أن تنطبق على أية مدينة أخرى دهمها السيل أو عاثت بها الحرائق قدراً وعلى غير تدبير ، وهى أقرب لأن تكون مقدمة طللية لقصيدة جاهلية ، تبكى رسوماً دوارس فى صحراء مرملة ، من أن تكون رثاء لبلنسية ذات الجنان النضرة ، والحضارة الخضرة ، والمرفأ الزاخر بالحياة وبالناس :

عاثتْ بساحتك الظُّبا يادارُ ... ومحا محاسنَك البلى والنارُ
فإذا تردّد فى جنابك ناظرٌ ... طال اعتبارٌ فيك واستعبار
أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها ... وتمخّضت بخرابها الأقدار
كتبتْ يدُ الحدثان فى عرَصاتها ... لا أنتِ أنتِ ، ولا الديار ديارُ

عجيب أن يكون ذلك رثاء ابن خفاجة لبلنسية موطنه ، وهو الذى وهب مغانى الأندلس شعره ، ووقف على تصويرها فنه ، وعب من لذاتها حياته ، وتعلق بها أرضاً وماء ، وشجراً وسماء ! .

لكن مرثية أخرى أتصورها رائعة ، لأن صاحبها كان أديباً وشاعراً وعالماً

ولغوياً ؛ ولأن مناسبتها كانت مثيرة وملهمة ، ضاعت فى زحام الأحداث ولم يصلنا عنها شىء فى المصادر العربية ، حتى ولا مجرد إشارة ، واحتفظت بها اللغة القشتالية نصاً مترجماً إليها فى أقدم مدوناتها .

كان دوزى (١٨٢٠ – ١٨٨٣ م) أول من وقعت عينه على هذه المرئية ، ذلك أن المستشرق الهولندى العظيم عكف زمناً طويلا على دراسة ما يسمى فى اللغة الإسبانية باسم « المدونة الأولى للتاريخ العام "Primera Cronica General" وكتبتْ فيما بين أعوام ١٢٦٠ و ١٢٦٨ م ، بإشراف **ألفونسو العاشر ملك** قشتالة ، والملقب بالعالم ، فلحظ أن الجزء الأخير من هذه المدونة ويختص بحياة السيد ، تتسم المعلومات الواردة فيه عن السيد وحصار بلنسية بالإطناب فى سرد الحقائق ، والدقة فى وصف البيئة الإسلامية فى كبرى شرقى الأندلس ، وهى خصائص تميز هذا الجزء عن بقية الأجزاء ، وانتهى فى دراسته إلى أن الرواية الواردة عن هذه الفترة فى « مدونة التاريخ العام » نُقلت مباشرة من كتاب تاريخ لمؤلف مسلم من أهل بلنسية ، وكتبه فى بلنسية نفسها ، فى الفترة التى كانت فيها تحت حكم السيد أو زوجه دونيا خمينا ، ثم تتبع صلات القربى بين الأصل العربى والمدونة الأولى للتاريخ العام ، فوجد عبارات عربية التركيب ، فى أكثر من مكان ، نقلها إلى اللغة القشتالية مترجم تنقصه البراعة ، قليل الدراية بالتراكيب والتعبيرات التى كان يتوخاها المسلمون بالأندلس .

وتشير المدونة صراحة إلى اسم مؤلف تنقل عنه ، تسميه Abenalfarex ، وهو اسم لا يرد فى أى من كتب التراجم الأندلسية . وقد انتهى **دوزى** ، ووافقه من بعد العالم الإسبانى الكبير **منندیث بیدال** ، إلى أن صاحب الكتاب العربى الذى نقلت عنه المدونة هو **ابن علقمة** ، **محمد بن الخلف بن الحسن إسماعيل الصدفى** ، **ويكنى أبا عبد الله** ، وتوفى عام ٥٠٩ هـ = ١١١٦ م ، وله أخبار وافرة ، فقد ترجم له ابن الأبار فى تكملة الصلة (الترجمة رقم ٥١٤) .

ولم يكن شاعراً متقدماً ، ولا كاتباً بليغاً ، غير أن أهم أثر ذكره من ترجموا له تاريخه فى تغلب السيد على بلنسية وأسماه : « **البيان الواضح فى الملم الفادح** » وقد ضاع هذا الكتاب ، فلم يصلنا منه إلا ما نقلته المدونة عنه فى اللغة القشتالية ، وإلا بضع صفحات نقلها عنه مؤلفون متأخرون .

لندع **دوزى** نفسه يقص علينا تجربته مع هذا النص ، يقول : « هذه المرثية ذات أصل عربى دون شك ، لأنها تحمل طابعاً خاصاً يجعل المرء يحكم عليها للوهلة الأولى بأنها تنتمى إلى الشعب العربى . وفيما يبدو لى ، فإن ابن **الأبار** كانت عينه على نفس القصيدة وهو يسجع مرثيته البليغة فى بكاء بلنسية عندما سقطت فى يد **ملك أرجون** » .

« جاءت المرثية فى « **المدونة العامة** » مرفقة بتفسير ، وكان **ألفونسو العالم** مغرماً بتأليف مقطعات من هذا اللون ، ويجوز لى أن أنسبها إلى واحد من الكيمائيين العرب ، وكان الملك يحب أن يحيط نفسه بعدد منهم ، وأن يعمل معهم فى كتابة مؤلفات مختلفة . غير أننا نقرأ على رأس هذه القطعة العنوان التالى : « كلمات الحاجب الفقيه » ، مما يوحى بأنها ترجمة لأصل عربى . ويبدو لى أن ألفونسو كان يعرف من العربية ما يتيح له أن يترجم بدقة وبسرعة النصوص النثرية ، ولكنه لا يستطيع أن يفهم الشعر أو يترجمه بنفس المستوى ومن المؤكد أنه عندما وصل إلى هذه القصيدة ، وقد وجدها فى تاريخ لبلنسية أمر واحداً ممن يعملون فى بلاطه بترجمتها ، ولسوء الحظ فإن الذى وقعت عليه الترجمة لم تكن لديه أية معرفة بالشعر ولغته ، فلم ير فى معانيها إلا مجرد إشارات غريبة وغامضة » .

« لم يعثر أحد بعد على النص العربى للمرثية ، ولكن المركيز بيدال يعتقد أنه وجده ، لا فى مخطوط عربى ولا فى نسخة من المدونة العامة ، وإنما داخل

كتاب ذى صيغة عالمية ، فى ستة أجزاء ، ألفه خوان فرناندیث دى إردیا Juan Fernandez de Eredia ، ومخطوطة هـذا الـكتاب نسخت فى Avignou خلال عام ١٣٨٥ م ، وتوجد الآن فى مكتبة دوق دى أسونا Daque de Osuna ، وتضم إلى جانب النص الإسبانى للمرثية نصاً عربياً آخر ، كتب فى حروف عادية ، وقد نشره بيدال ، واعتقد أن هذا النص العربى هو أصل المرثية ، وعده لوناً من الشعر الشعبى » .

« وفى البدء اقتنعت بالفكرة ، وآمنت بهذا الرأى ، لأن وجود النص الأصلى للمرثية البلنسية سيكون برهاناً جديداً على ماارتأيته من أن أخبار المدونة العامة كانت مجرد ترجمة لكتاب عربى. ولكنى عندما تأملت الأمر فى روية غيرت رأيى ، لأن النصّ الذى نشره بيدال لا يمكن أن يكون من القرن الحادى عشر ، لأنه كتب فى عامية منحطة للغاية ، مليئة بالأخطاء النحوية والصرفية ، فهو يستخدم كلمة « متاع » بدلا من ضمير الملكية ، ومهما يكن من تسامح عرب الأندلس إزاء الشعر الشعبى ، كالأزجال التى أوردها كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، فلا يمكن أن ينتهى بهم الأمر أن يلغوا قواعد اللغة تماماً فى مثل هذا الشعر » .

« ومن جانب آخر هذا النص لا يمكن أن يكون شعراً لأنه ليس مقفى وقد لاحظ مالو دى مولينا Malo de Molina وبحق ، أننا إذا اعتبرنا هذه العبارات شعراً فإنها تجىء على بحور خاصة ، غير معروفة لنا ، لأنها لا تسير على أى من البحور العربية المعروفة لنا ، إنى أعتقد أن هذه القطعة ليست شيئاً آخر غير ترجمة لنص إسبانى ، تمت فى نهاية القرن الرابع عشر ، وفى هدى من نسخة خوان فرناندیث يمكن القول أن الذى قام بها يهودى يعرف اللغة العامية على نحو متواضع ، من خلال رحلاته فى العالم الإسلامى ، وإلمامه

باللغات المتكلمة هناك » (١) .

حاول منندیث بیدال (١٨٦٩ — ١٩٦٩ م) أن يدرس الأمر من جديد فى ضوء معلومات جديدة ، ففى عام١٨٥١ م أعلن المركيز بيدال أنه يعكف من زمن على دراسة مخطوطة فريدة فى مكتبة دوق دى أوسونا تضم النص العربى للمرثية ، فى كلمات عربية وحروف لاتينية ،وقام من جانبه بنشر هذا النص . غير أن التاريخ الذى أعطاه له كان خاطئاً ، ولأنه نشر النص اعتماداً على مخطوطة وحيدة فقد جاء مليئاً بالأخطاء ، ولم يستطع المستشرق جيانجوس Gayangos رغم تضلعه فى العربية أن يتغلب عليها ، وحاول مالو دى مولينا من جانبه أن يكتبها فى رسم عربى فذهبت جهوده هباء . وقد وجد منندیث بیدال أن النص الذى عثر عليه المركيز لا يوجد فى مجموعة التاريخ التى ألفها خوان فرناندیث ، والتى نسخت عام١٣٨٥ م ، وإنما يوجد فى مخطوطة أخرى ترجع إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى أيضاً . لقد شك دوزى فى صحة وقدم النص العربى لأن العثور عليه لم يكن فى مخطوطة عربية ، ولا حتى فى نسخة « المدونة العامة » ، ومؤلفوها كما هو معروف كانوا يكتبونها وتحت أعينهم كتاب عربى يصف حصار بلنسية من قبل السيد ، ومن ثم فهم يعرفون نص المرثية .وقد وجدت — أى منندیث بیدال — أن المخطوطة التى ظنها المركيز جزءاً من تاريخ خوان فرناندیث ، ليست إلا مخطوطة « المدونة العامة » ، وقد بقى لنا منها القليل مما يشير إلى السيد ، وقد درست بقية مخطوطاتها ، ، وهما ثنتان ، فوجدت فيهما كلتيهما نص المرثية العربى ، والمادة المتعلقة بحصار بلنسية . أى أن المرثية توجد فى مخطوطات « مدونة التاريخ » الثلاث : الأولى و يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ومحفوظة فى دير الأسكوريال .

---

(1) Dozy : Recherches.., Tome II, Appendice XXIV, 3me édition, Leyde 1881.

والثانية ، وتوجد فى المكتبة الوطنية بمدريد ، وترجع إلى النصف الثانى من نفس القرن . ثم الأخيرة ، وتوجد فى المكتبة الملكية ، ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الخامس عشر (١) .

وقفت القضية عند هذا الحد ، دون أن يتقدم أحد بالبحث خطوة أخرى إلى الأمام ، وكان أعقد ما واجه الباحثين معرفة الشاعر الذى أنشد المرثية ، أو تحديد شخصيته فى القليل . لأن اسمه يرد فى مخطوطات « المدونة » الثلاث بل وفى داخل المخطوطة الواحدة مرسوماً فى كل مرة على نحو مخالف ، فهو Alfaraxi ، وثانية Alhugi ، وأخيراً Albataxi ، وهى أسماء مجهولة لنا تماماً ، وغير واردة فيما بين أيدينا من معاجم الأدباء والشعراء ، وكتب الأدب والتاريخ ، لكن الأسماء الثلاثة ترد دائماً مقترنة بأوصاف ثابتة ، فصاحبها فقيه وأديب وشاعر وفيلسوف ومؤرخ ولغوى ، فطن جيد الفهم والتفكير ، أحبه السيد وكان يُكثر من رؤيته ، وعينه حاكماً على مسلمى بلنسية ، فوجد أهلها وحافظ على أموالهم.

إلى أن جاء العالم الإسبانى الجليل ، المستشرق خوليان ريبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ — ١٩٣٤ م) ، وهو أصلا بلنسى ، فحل طلاسم هذه المشكلة المعضلة وكانت وجهة نظره أن هذه الأسماء الثلاثة هى لشخص واحد ، وما بينهما من خلاف إنما هو تحريف من النساخ أو المترجم ، وهو أمر يحدث كثيراً للأسماء العربية ذات الشهرة ، فى الكتب الإسبانية القديمة ، فبغداد Bagdad ترد مكتوبة Belcad ، وزبيدة Zobeide زوج هارون الرشيد ترسم Seleyde ومن الجائز أن يحدث هذا لأسماء أقل شهرة ، وأكثر صعوبة عند القراءة : ومضى يفتش عن شخص يجمع الصفات التى أشارت إليها « المدونة » ويرد اسمه بها محرفاً ، وانتهى إلى أنه أبو الوليد الوقشى Abulgualid Aluacaxi

1. Menéndiz Pidal : Sobre Aluacxi y la elogia 'arabe de Valenicia, en "Homenaje a Codera", p. 393-409.

نسبة إلى وقش Guacax قرية قريبة من طليطلة تحمل اليوم اسم Huecas وهو بتحريف بسيط يمكن أن يقرأ كما فى « المدونة » . فالوقشى Alguacaxi يمكن أن تقرأ الوطشى Alguataxi أو البطشى Albataxi أو الوثى Alhugi أو حتى الفرشى Alfaraxi .

ويرى عكس دوزى ، أن النص الإسبانى ليس ترجمة للنص العربى المرافق له ، وإنما هو ترجمة لمفهوم المرثية ، وأن النص العربى المرافق هو ترجمة للترجمة ، ويبنى رأيه على أن النص العربى الذى فى « المدونة » ليس شعراً ، والثابت أن المرثية أنشدت من فوق أسوار بلنسية شعراً ، فضلا عن أنه نثر ركيك للغاية لا يمكن أن يكون أسلوب كاتب عظيم كالوقشى ، بل ولا حتى أسلوب عادى ، وأن الترجمة الإسبانية جميلة ، وخالية من الاضطراب الموجود فى النص العربى . إن كل كلمة عربية وضعت تحت اللفظ المقابل لها فى اللغة الإسبانية حتى لو اصطدم هذا مع بناء الجملة العربية ، فمثلا إذا كان الفاعل يسبق الفعل دائماً فى اللغة الإسبانية فهو كذلك فى الترجمة العربية على الرغم من أن النظم العادى للجملة العربية أن تبدأ بالفعل ثم يليه الفاعل ثم المفعول ، وبعض المعانى تقتضى دقة التعبير فى الإسبانية التعبير عنها بأكثر من كلمة ، فيترجمها فى العربية كذلك من غير ما ضرورة مثل y no Puede dar Flor يترجمها : « وليس تقدر تعطى نوار »[1] وهى عربية ركيكة للغاية لأن كلمة « لا يزهر » تعطى معنى الجملة كلها .

ومن الواضح أن الترجمة العربية قام بها رجل لا يحسن التحدث باللغة العربية ، ولعله كان كاثوليكياً استعان بمسلم يسأله عما يقابل الكلمات الإسبانية من أخرى عربية ، ويكتب ما يمليه عليه فى الحال ، أو لعل الكاثوليكى كان

(١) انظر الفقرة رقم ١٠ من نص المرثية .

يعرف شيئاً من العربية : بعض الألفاظ ، وتركيب الجملة البسيطة ، وقام بالترجمة مستعيناً فى بعض الحالات بالقاموس ، والترجمةالعربية فقيرة للغاية فى القواعد واللغة ، ويستخدم المترجم للإضافة لفظ « متاع » »(١) و« شوى» بدل قليل . ولا يحسن من أدوات النفى إلا ليسَ ، ولم يستخدم ولا مرة واحدة أداتى النفى « لا » و « ما » ؛ مع أنهما يستخدمان كثيراً فى اللغة العامية، ولا يعرف العطف بين الجمل ، وإنما يربط بينها على الطريقة الإسبانية .

●

فى ضوء مخطوطات «المدونة» ،الثلاث قام السنيور ربيرا بكتابة النص العربى المدون فى حروف لاتينية بالحروف العربية على النحو التالى :

١ — بلنسية بلنسية جاءت عليك كسرة كثيرة أنت فى وقت عن موتانك فإن كان يكون قدرك أن تفلت من هذا يكون عجباً كبير لمن بريك .

٢ — وإن أراد الله أن يعمل خير لموضع خص عن خير جاءكعن يعمله إليك إن كنت أبدا مليحةومسرورة وبهجة فشىء كان اذكره المسلمين وبشوقه .

٣ — وإن أراد الله بالجملة أن كتخسر منهذهالمرة يكون عن ذنوبك الكبار وعن الجسر الكبير الذى كانمعك بتجبّرك .

٣— أوائل أربعة حجار كبار الذى كنت عليها مينبة هايريدوا يجتمعوا عن يعملوا عزاء عنك وليس يقدروا .

٥ — السور العظم متاعك الذى بنى هؤلاء الأربعة حجارها يرتج . . . ويريد يقع أن قد خسر القهرة متاعه .

٦ — الأبراج العالية متاعك الملاح الذى ظهر من بعيد تسلى الفواد متاع أهلك شوى شوى تريد تقع .

---

(١) يساوى في العامية المصرية لفظ « بتاع » ومازال مستخدما في المغرب والجزائر .

٧ ــ الشرائف البيض متاعك الذى من بعيد كتشرق قدخسرت شرقها الذى كتظهر لشعاع الشمس .

٨ ــ الوادى المليح متاعك الكبير وادى الوبار مع الأشياء الاخر الذى كنت منها جيد مخدوم قد خرج من عدو ويمشى اين ليس كان لمشى .

٩ ــ سواقيك الصافية الذى كثير كتنتفع أنت بها كتر جعت منكدرة وعن نقصان التنقية هى تمشى مال متاع حمىء .

١٠ ــ الجنانك الملاح الفاكهة الذى عن حوليك السبع المسعور حفر له الأصول وليس تقدر تعطى نوار .

١١ ــ مروجك الملاح الذى يكون فيها النوار الكثيرة الملاح الذى كيأخذ فيها أهلك سرور الكبير هى كانت يبست .

١٢ ــ مرسيك المليح الذى كتاخذ انت منه كرامه الكبيرة يكون ناقص متاع الملاحة الذى كانت تجىء منه .

١٣ ــ واقطاع من الكورة الكبار الذى كتتسمى سلطانة من قديم النار قد أحرقها وقد يصل إليك الدخان .

١٤ ــ ومرضلك الكبير ليس يوجد بدوى والحكماء قد خسروا الياس من مرضلك ليس يقدروا يدويك .

١٥ ــ بلنسية بلنسية هذا القول الذى قلت عليك قلتها بكسرة العظيمة مافى قلبى .

وتوجد فقرة منفصلة عن النص السابق ، ورسمها بحروف عربية على النحو التالى :

١٦ ــ إن مشيت شمالا يغرقنى الماء الكثير إن مشيت يميناً يكلنى الأسد إن مشيت يميناً يمتنى البحر إن رجعت لخلفى يحر قنى النار .

بلنسية هذا قلت أنا لك إنى ليس قدرت قلت لعاد الذى أخرب ...(١)

لم يكتف مؤلف « تاريخ إسبانيا العام » بالترجمة الإسبانية للمرثية الأندلسية ولا بترجمته ، وإنما أتبع كل فقرة إسبانية بشرح إسبانى يوضح المقصود منها ، ولما كانت المرثية تنشر لأول مرة فى العالم العربى ، وكانت ترجمتها العربية ركيكة وغير مفهومة ، فقد ترجمت النص الإسبانى للمرثية مستعيناً بالشرح الإسبانى على توضيح ماقد يكون غامضاً من الإشارات ، دون تجاوز للنص نفسه ، لأن الشارح كثيراً مايذهب إلى مفاهيم بعيدة غير مرادة من النص ، ويهمل أخرى واضحة فيه ، لأسباب تتصل باتجاهه السياسى وعقيدته الكاثوليكية :

١ — بلنسية ! . . . بلنسية ! . . . مصائب كبيرة تحدق بك ، أنت تحتضرين ، وإذا قُدر لك النجاة ، فسيراه عجيباً من يعيش ويراك .

٢ — وإذا أراد الله خيرا لهذا البلد ، فأملى كبير أن يتولاك برحمته ، فلقد كنت دواماً موطن الجمال والسرمد ، حيث يعيش المسلمون جميعاً فى بهجة ومتعة .

٣ — وإذا أراد الله أنك تخسرين كل شىء هذه المرة . فسوف يكون تكفيراً عن خطاياك الكبيرة واجتراءاتك الأثيمة ، وما كنت عليه من تجبر .

٤ — العُمُد الأربعة التى تنهضين عليها ، يريدون أن يجتمعوا ليهدموها فيحزنوك ، وما هم بمستطعين .

٥ — سورك العظيم الذى بنى مع العمد الأربعة ، ترتج حجارته ، ويريد أن يقع بعد أن تضعضع أساسه (٢) .

(1) Julian Ribera y Torrogon : Disertaciones y Opusculos, Tomo, II, p. 275. ss., Madrid 1928.

(٢) هذه الفقرة لم ترد ترجمتها الاسبانية في النص الذى بين يدى مأصلدتها على مقتضى السياق .

٦ ــ أبراجك السامقة الارتفاع ، الرائعة الجمال ، والتى تلوح من بعيد فتدخل البهجة على قلوب أهلك ، تقع شيئاً فشيئاً .

٧ ــ شرفاتك البيضاء، تشرق من مسافات بعيدة ، فقدت أمانها عندما بدت لأشعة الشمس .

٨ ــ نهرك الجميل الفياض ، نهر الوادى الأبيض ، وكل المياه الأخرى التى تسقيك بوفر ، وتصدر عن ينبوع واحد ، تمضى ولا تعود .

٩ ــ سواقيك الصافية التى ينتفع بها أناس كثيرون عادت كدرة ، لا أحد يعنى بنظافتها فتحولت إلى مياه حمئة .

١٠ ــ جنانك الجميلة، من حواليك مهملة ، عبثت الذئاب المسعورة بأشجارها فلم تعد تثمر شيئاً .

١١ ــ مروجك الرائعة ، ذات الأشجار الجميلة الكثيرة المثمرة ، يجتى أهلك ثمارها فى سرور ، عادت يابسة .

١٢ ــ مرساك الجميل، الذى تشرفين به كثيراً أصبح عارياً عن الجمال، خالياً من السفن الكثيرة التى تعودت أن تجىء إليه .

١٣ ــ ضياعك الواسعة، وكنت تسمينها « سلطانة » التهمتها النيران ، ويصلك دخانها عالياً .

١٤ ــ لا يوجد دواء لمرضك العصى ، والأطباء يائسون ، وليس فى وسعهم أبدا أن يعيدوا لك صحتك كاملة .

١٥ ــ بلنسية ! . . . بلنسية! . . . كل هذه الأشياء التى عددتها لك أومن بها ، قد قلتها وألم أسيف يملأ قلبى (١) .

(١) النص الاسبانى الذى قمت بترجمته لا يضم الفقرة السادسة عشرة ويوجد في :
Andrés Piles Ibàrs : Valencia Arabe, tomo I, P. 297 ss., Valencia 1901.

لم تكن مرثية الوقشى الضائعة والمجهولة لدينا تماماً كذلك فى عصرها، وإنما كانت بمضمونها وما أحاط بها من ملابسات متداولة بين المسلمين والمسيحيين على السواء. وليست « مدونة تاريخ إسبانيا » وحدها هى التى جاءت بها كلها أو بشىء من نصها، إنما نجدها شعراً إسبانياً كاملا ودقيقاً . فى الأغنيات الإسبانية الشعبية ، وبدأت تزدهر فى الجانب الكاثوليكى من الأندلس بعد سقوط بلنسية فى يد السيد، وجعلت من شخصيته بطلا لا يقاوم، تنسج حوله الأساطير وتحكى عنه المعجزات ، وهو شعر شعبى لا ينسب إلى قائل فرد ، وليس له من صانع غير الشعب نفسه، وحُفظ شفاها بالرواية — على طريقة الشعر الجاهلى — عبر أربعة قرون كاملة، وفيما صاغ حول بطولات السيد احتفظ لنا بنص المرثية الأندلسية شعراً بالإسبانية، وكانت الرواية الشعبية فى احتفاظها بالمرثية الأندلسية مترجمة إلى القشتالية، أصدق تعبيراً فى المحافظة على روح الشاعر ، وأقرب إلى النص العربى متصوراً، من النص النثرى الذى جاءت به « مدونة تاريخ إسبانيا العام » ، وقبل أن نقارن بين النصين ، يحسن أن أورد النص الشعرى مترجماً ، وقد عثرت عليه منزوياً ضائعاً فى ديوان يضم قصائد شعرية تحمل اسم « ديوان السيد » :

١ ، ٢ — بلنسية ، بلنسية !

٣ — إذا لم يحزن الله من أجلك ، وأنت دائماً أهل لأن تسودى ، فإن شرفك سيتضاءل ، ومعه الراحة والهدوء ، وقد تعودنا أن نستمتع بهما .

٤ — عمدك الرئيسية الأربعة، حيث ذهب المسلم ليجلس ، ويبكى إن استطاع ، يريدون أن يجتمعوا ليهدموها .

٥ — أسوارك العالية . . . ما أقوى الذين فوقها ! ، كثيرون يقاتلونهم ، ورأيتهم جميعاً يرتعشون .

٦ — قلاعك ، وقد تعود أهلك أن يتأملوها من بعيد، وجلالها الرائع

الصافى ، عودهم أن يتأسوا بها ، تتهاوى شيئاًفشيئاً ، دون أن يستطيع أحد إنقاذها .

٧ — شرفاتك البيضاء ، تلمع مثل البلور ، فقدت أمانها ، ومنظرها الجميل

٨ — ونهرك الفياض ، نهر الوادى الأبيض ، مع مياهك الأخرى ، تفيض من ينابيعها .

٩ — وجداو لك ذات المياه الصافية ، عادت كدرة إلى الأبد . وعيونك وينابيعك جفت كلها .

١٠ — جناتك الخضراء المهملة ، لم تعد تثمر شيئاً ، وأشجارها وأعشابها رعتها حيوانات ضالة .

١١ — مروجك ، ذات المائة ألف زهرة ، لم تعد تعبق بأى أريج ، تماثل ذابلة وفى عصبية ، بلا لون ولا رائحة .

١٢ — الاستغلال الشريف لشاطئك وبحرك ، عاد ملؤه الأذى والفضيحة .

١٣ — الجبال والحقول والوديان وقدتعودت أن تأمر بها ؛ دخان حرائقها أصبح يعمى عينيك .

١٤ — داؤك عصى وخطير ، وأمراضك عديدة ، ويئس الرجال من أن يعيدوا إليك صحتك .

١٥ — بلنسية ! ، بلنسية ! لعل الله أراد علاجك ، وفى أحايين كثيرة يعرف سلفا ما نبكى منه نحن الآن (١) .

يتفق النصان ، النثرى والشعرى ، فى المعنى العام ، ويكمل ، أحدهما الآخر فى بعض التفاصيل ، فنص «المدونة» يرى أن ماأصاب بلنسية كان عقاباًلها من الله على ما ارتكبته من آثام ، وهو معنى تكرر فى مرثية طليطلة التى وصلتنا

Romancero del Cid, 207, Barcelona 1884.

مجهولة القائل ، ورجحت أنا اعتمادا على التحليل الداخلى للنص أنها للوقشى نفسه صاحب هذه المرثية ، وقد عرضت لها من قبل (١).

وأغفل نص « المدونة » شجاعة الذين كانوا يقاتلون فوق أسوار بلنسية دفاعاً عنها وعرضت له « الأغنية »، وأضافت أن مقاتليهم من أعدائهم كانوا يرتعشون على الرغم من كثرتهم ، وجعلت « المدونة » عبث الذئاب المسعورة سبباً فى خراب البساتين ، أما الأغنية الشعبية فكانت أكثر واقعية ودقة فعزته إلى رعى الحيوانات الضالة الجائعة فقدت من يُعنى بها .

هل كان الوقشى وحده هو الذى رثى بلنسية ، أم أن آخرين شاركوه نفس المشاعر والأحاسيس ؟ ولماذا غفل التاريخ الأندلسى عن مرثياتهم جميعاً فلم يعرض لها من قريب أو بعيد ، على حين عنى بمرثيات أخرى كثيرة ضاعت أسماء قائليها أو طواهم النسيان ، بينما بقيت قصائدهم نفسها تتردد على كل لسان ؟

التعليل ، فيما أرى ، أن السيد لم يكن غازياً يخيف دولة ، وإن كان قاسياً يرهب مدينة ، لأنه لا يمثل أمة طامعة ، ومطامحه شخصية ومحدودة . ورغم تحويله مسجد المسلمين الجامع إلى كنيسة ، تحت ضغط راهب فرنسى متعصب ، هو جيروم دى بيريجور فلم يكن هو نفسه يحيا حياة كاثوليكية ، وكان يتكلم العربية بطلاقة ، وبين يديه يتنافس الشعراء مسلمون ومسيحيون كل بلغته ، ينشدونه قصائدهم التى يتغنون فيها بالحب العذرى ، وعلى الرغم من بطشه بعلية القوم فى بلنسية وقتلهم حرقاً ، كان خط سياسته الواضح يستهدف إرضاء العامة من سكان المدينة واحتواءهم إلى جانبه .

مثل هذا الاتجاه خفف من وقع أحداث بلنسية على المسلمين الأندلسيين خارج المدينة ، ولم يكونوا يرون فيه خطراً عاجلا أو قائماً ، ومن ثم لا يحظى احتلال بلنسية إلا بإشارات بسيطة فى المؤلفات العربية العامة ، فبينما — مثلا —

---

(١) انظر ص ٢٥٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

نحص **عبد الله بن زيرى** ملك غرناطة **ألفونسو السادس** فاتح طليطله بصفحات ضافية لا يشير إلى فتح **السيد** لبلنسية إلا فى سطور قليلة (١) لكنه بالنسبة إلى أهل بلنسية نفسها كان خطراً ماحقاً ، فقد لاقى الناس جميعاً خلال حصاره لها أهوالا من العذاب ، ولقى خاصتها بعد الفتح ألواناً من الذل ، ومن هنا كان أهل بلنسية وحدهم هم الذين بكوها ، وضاع بكاؤهم فيما ضاع من مؤلفات تدور حول محنة المدينة وسقوطها .

وإذا كانت المصادر العربية ، دون استثناء ، لا تشير إلى القصيدة من قريب أو بعيد ، فالمعلومات التى لدينا عن الشاعر منشد القصيدة ، بعد الاهتداء إليه ، جد شحيحة . وربما كانت أفضل ترجمة له بين أيدينا تلك التى أوردها ابن **بشكوال** فى كتابه « **الصلة** » ، فهو القاضى **أبو الوليد هشام بن أحمد الوقشى** ، ولد فى بلدة **وقش** عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٦ م ، من محافظة طليطلة ، وتوفى فى **دانية** على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، جنوبى بلنسية ، عام ٤٨٩ هـ ؛ ١٠٩٦ م ، وكان « أحد رجال الكمال فى وقته باحتوائه على فنون المعارف ، وجمعه لكليات العلوم » ، « ضليعاً فى النحو واللغة ومعانى الأشعار ، وعلم العروض وصناعة البلاغة ، شاعراً متقدماً حافظاً للسنن وأسماء نقلة الأخبار ، بصيراً بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، نافذاً فى علم الشروط والفرائض ، متحققاً بعلم الحساب والهندسة ، مشرفاً على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب » .

وكان فى بلنسية عندما احتلها السيد ، وتولى رياسة القضاء على أيامه ، وتخرج على يده جلة من تلاميذ بلنسية وما صاقبها . وكانت له مكانة ملحوظة فى المدينة ، لما اتسم به من فضائل أوجزها ابن بشكوال . وقد استطاع أن ينال ثقة السيد وأن يكون موضع تقديره ، ولعل ما كان بين القائد المحتل

---

(٢) عبد الله بن زيرى ، مذكرات الأمير عبد الله ، صفحات ٦٩ وما بعدها وص : ١٥٧ . طبعة دار المعارف ، بتحقيق ليفى بروفنسال .

والقاضي المسلم من ود وتجاوب ، لم يقع مند كثير من المسلمين موقع الرضا . ولربما كانت الصلة بينهما عاملا من عوامل ضياع شعره وخبره ، ذلك أننا نجد فى نهاية ترجمة ابن بشكوال إشارة غامضة لا تفصح عن شيء ، ولكنها تلقى على سلوك الرجل ظلا غير صاف ، يمكن أن يفسر فى ضوء مانعرفه عن علاقته بالسيد ، يقول : « وقد نُسبت إليه أشياء ، والله أعلم بحقيقتها ، وسائله عنها ، ومجازيه بها » . وربما كان مفيداً أن ألمح إلى أن « المدونة العامة » ، وهى فى غير مانقلت عن المؤلفات العربية تفيض بالخرافات والأساطير ، أفاضت الثناء على الرجل ، وجعلت منه إنساناً ممتازاً ودوداً . أخذ بالكاثوليكية فاعتنقها . وزادت فجعلت منه راهباً لجأ إلى دير **كارديني** ، قريباً من **برغش** . وحيث كانت زوجة السيد وبناته من قبل ، وتفضلت عليه باسم مسيحى ، **هوخيل دياث** Gil Diaz ، ودفن هناك فيه بجوار فرس السيد الشهير . ويقول **منندیث بیدال** « إن هذا الخبر أسطورة خالصة ، لأن **الوقشى** توفى مسلماً ، ودفن فى بلد مسلم ، وفى تاريخ معلوم للجميع » ، وكان له فى **دانية** قبر معروف يزُار من قبل أصدقائه وعارفيه .